## الفينيقيون

(تابع لما في الجزء السابق)

وكان لهم في الصناعة اليد الطولى ولا سيما في صنع المعادن والمنسوجات وضروب الوشي والزخرفة والتماثيل المعدنية والحجرية . وقد جاء في التوراة في وصف حيرام الصوري انهُ كان خبيراً بعمل الذهب والفضة والنحاس والحديد والحجر والخشب والارجوان والسَمَنْجوني والبَزّ والقرمز وصناعة كل نقش واختراع كل شيء يُلقَى اليهِ . ومن بدائع مصنوعاتهِ في هيكل سليمان العمودان الهائلان اللذان نصبهما في رواق الهيكل وهما المسميان بياكين و بُوعَز سبكهما من نحاس وكان طول الواحد منهما ثماني عشرة ذراعاً ومحيطهُ اثنتي عشرة وسبك لكلٍّ منهما تاجاً على شكل زهرة سوسن ارتفاعهُ خمس اذرع تحيط باصلهِ مئتا رمانةٍ قد نُظمت صفَّين . ثم الحوض المسمى بالبحر سبكهُ مستديراً على شكل سوسنة وجعل قطرهُ عشر اذرع في مثل نصفها ارتفاعاً واقامهُ على اثني عشر ثوراً كل ثلاثة تنظر الى جهة من الجهات الاربع . وسبك معهُ عشرة ابازن للاغتسال ركَّبها على قواعد تجري على بكر من نحاس ونقش عليها اسوداً وثيراناً وكَرُوبين وجعل فوق هذه وتحتها قلائد زهور متدلية الى آخر ما ذُكر من الوصف هناك

ثم ان الفينيقيين هم اول من زاول صنع الزجاج واول من اتخذ منهُ المرائي وكانت قبل ذلك تتخذ من صفائح المعدن . وكانوا ولا ريب قد اهتدوا الى معالجة الزجاج باضافة المنغنيز الى الرمل والصودا للزيادة في شفوفهِ وصفاءِ

ما ئهِ ويقال انهم كانوا يقلدّون بهِ الحجارة الكريمـة و يلوّنونهُ بالاكاسيد المعدنية . وهم اول من استعمل في الصناعة البوري والمخرطة والازميل ونُقل عن سنكُنيات المقـدم ذكرهُ ان الصيدونيين هم الذين وضعوا فن الموسيقى واليهم ينتهي اختراع اكثر الآلات القديمة وفي رأي بعضهم ان هذا الفن لم يبلغ ما بلغهُ من الاتقان عند الاسرائيليين لعهد داود الاّ لمـا كان من استحكام الصلات بين بلاط اورشليم و بلاط صور

الا ان اعظم اختراعٍ يُنسَب الى الفينيقيين هو استنباطهم لصناعة الكتابة والمراد بها الكتابة بحدّها المعروف اليوم اي المؤلفة من حروفٍ ذات مقاطع فان الكتابة التي كانت متعارَفةً قبل ذلك من مثل الرسوم الصينية والهيرغليفية انما كانت رموزاً يُدَلّ بها على الكلمات دون الحروف و بعبارةٍ اخرى كانت صوراً للمعاني دون الالفاظ فكان تعلُّمها يقتضي درساً طويلاً لكثرة اشكالها واختلاف مدلولاتها فضلاً عما يقع فيها احياناً من الالتباس ولذلك لم تكن جديرةً بان يعمّ استعمالهـا جميع طبقات المجتمع . وبخلافها الحرف الفينيقي لرجوعهِ الى تركيب الصور اللفظية وانحصارهِ في عدد معلوم من الاشكال هو عدد المقاطع التي تتركب منها تلك الصور ولذلك لم يكد يشتهر هذا الاختراع حتى تناولتهُ الامم المجاورة ثم لم يلبث ان شاع في جميع اطراف آسيا وسواحل افريقيا وجاز البحر الفاصل بين آسيا واوربا فدخل كريت و بلاد اليونان وصِقلّية وايطاليا واسپانيا وانتشر من هناك الى شمالي اوربا وكان سبباً في تمدن اكثر امم الارض

واما لغة الفينيقيين فمع انتشارها في كل موضعٍ وصلت اليهِ طوارئهم

ومع كثرة ما وُجد لهم من الآثار والدفائن لم يعثر الباحثون منها على القدر الكافي للكشف عن حقيقتها غير انها بلا ريب كانت من الفروع السامية كما يُستدَلّ عليهِ من الكتابات القليلة التي وُجدت في بعض دفائن قبرس ومرسيليا وغيرها . وفي كلام اشعيآء ما يؤخذ منهُ انها هي العبرانية بعينها لانهُ يسمي هذه اللغة بلغة كنعان وهو ما تؤيدهُ الادلة التاريخية والشواهد اللفظية كما اثبتناهُ في الكلام على اصل اللغات السامية[1] مما لا نكررهُ في هذا الموضع طلباً للاختصار . على انهُ قدتبين من بعض ما في الكتابات المذكورة ان هذه اللغة تختلف بعض الشيء عن اللغة المدوَّنة في التوراة وقد وُجد فيها كلمات عربية وحميرية وحبشية لا وجود لها في العبرانية او توجد فيها ولكن بغير مدلولها الفينيقي . والاظهر ان هذا الاختلاف نشأ بسبب مهاجرة بني اسرائيل ذلك الزمن الطويل واختلاطهم بالمصريين وما عرض لهم من تبدُّل العادات والشؤون مما لا بدّ ان يكون قد حدث شيء من مثلهِ عند الكنعانيين ايضاً فنشأ بين الفريقين من تباين اللهجة ما ينشأ عادةً بين اصحاب اللغة الواحدة اذا اتفق لهم مثل ذلك . وقد وقع مثل هذا الاختلاف بين لغة فينيقية ولغة قرطاجة مع تحقق وحدة الاصل فيهما وهو ولا ريب مسببٌ عن مثل ما ذُكر

وقد انقرضت اللغة الفينيقية منذ ازمانٍ بعيدة لما توالى على اهلها من الجوائح وما تبدل على ارضهم من الدول ولا سيما بعد وقوعهم في قبضة الرومان وكان آخر ما عُهد منها في قرطاجة ونواحيها من بلاد افريقيا وذكر القديس

---

( ١ ) انظر مجلد السنة الرابعة ص ٤٨٨ و ٤٨٩

ايرونيموس في القرن الرابع بعد الميلاد انها كانت باقية الى ايامهِ وذلك بعد خراب قرطاجة على يد الرومان بما يزيد على ٥٠٠ سنة

اما دين الفينيقيين فهو كسائر شؤونهم لم يبقَ ما يُعرَف منهُ الا الشيء القليل وقد كتب عنهُ جماعةٌ منهم ثيُودُوطس وهِنِسكرات وهيّرُونيمس المصري وغيرهم ولعلّ اصحّ ما ورد فيهِ ما نُقل عن سَنكُنيات المقدَّم ذكرهُ. ومحصَّل ما جآء في تلك المنقولات ان الفينيقيين كانوا يرجعون في عقائدهم الى كتبٍ مُنزَلة على حدّ سائر امثالهم من الامم الكبرى لذلك العهد كالبابليين والمصريين وغيرهم وقد أُنزلت تلك الكتب اليهم على يد تآؤُوت اله الحكمة عندهم وهو فيما يرى بعضهم نفس توث اله المصريين المعروف عند اليونان بهرمِس وقد اوحى اليهِ بها بعل الاله الاعظم وكان هذا الاله الحكيم ينزل حكمتهُ على عَمَد الهياكل او يودعها الواح الكتب المقدسة

على ان ما نُقل عن سنكنيات لم يخلُ من مخالطة اشيآء من فلسفة اليهود واليونان والمصريين كما يتبين ذلك مما روى عنهُ اوسابيوس القيصري وهو في الغالب مقصورٌ على البحث في كيفية الخلق وكلهُ مورّى تحت الرموز والاسرار. وخلاصة ما ذُكر فيهِ انهُ في البدء كان يملأُ الفضآء هوآء مظلم وقد انتشرت في ذلك الهوآء نسمة الروح وكلاهما لا يحيط بهِ حيّز ولا يحدُّهُ زمن. ثم ان عناصر الهوآء عشق بعضها بعضاً فاتحدت وتولد عن هذا الاتحاد الطين او الحمأ وكان هو جرثومة الخلق باسرهِ. ولما خُلقت الكائنات الحية كانت فاقدة الحسّ ثم تولد عنها كائناتٌ اخرى حية عاقلة كانت على شكل بيضة وسميت زُوفًا سَمين (وبالعبرانية صُوفًا شَمايِم) اي

حارس السماوات . وبعد ذلك ظهرت من جوف ذلك الحمأ الشمس والقمر والنجوم والكواكب الكبرى اي صُوَر النجوم. ولما التهب الهوآء بحرارة الارض والبحر نشأت الريح والسحاب وعقب ذلك انهمار مياهٍ كثيرة من السمآء انصبّت بغزارة عظيمة ثم تبددت بحرارة الشمس فعادت الى الجوّ وعند التقآئها اصطدمت بعنفٍ فحدث الرعد والبرق وعند قصيف الرعد استيقظت الحيوانات العاقلة وارتعشت بذلك الصوت فشرعت تتحرك في البرّ والبحر وكان منها ذكورٌ واناث

وهناك تفاصيل طويلة في اشتقاق بعض الآلهة من بعض وتسلسل الخلائق من العناصر اكثرها مُبهَمٌ لاستتارهِ وراء الرموز فاضربنا عن استيفآئها . ومن تقاليدهم التي رواها فيلون في حديث الخلق ان الاله الخالق واسمهُ عندهم ايل لما نوى ان يخلق الكائنات وأد أخاهُ اطلس اي دفنهُ حيًّا برأي تاأُوت وهو هرمس وذبح ابنهُ ساديد بيدهِ وقطع أرؤُس بناتهِ وتزوج جميع بنات ابيهِ وفيهنَّ عشتاروت والمراد بها هنا القمر وهي من اعظم آلهة الفينيقيين . فولدلهُ منها سبع بنات هنَّ الكواكب السبعة السيّارة ووُلد لهُ ايضاً ثلاثة بنين يسميهم اليونان كرُونُوس وزِيُوس وأَبُولُّون وهم ثلاثة اقانيم لالهٍ واحد يراد بهم ثلاث صفاتٍ هي التي لم تبرح منذ تجسد اللاهوت في العالم تحييهِ وتحرسهُ وتجدد ما اندرس منهُ على الدوام

ثم ان كرونوس وهو احد الاقانيم الثلاثة المذكورة ذبح لابيهِ اورانس (اي السمآء) ابنهُ الوحيد وقرَّبهُ محرقةً لهُ فكان من ثمَّ رسم الضحايا البشرية التي طالما جرى عليها الفينيقيون ولا سيما في عبادة بعل مُولك وهو

الذي يسميهِ فيلون كرونوس قيل والمراد بهِ زُحَل وهو اعظم آلهتهم. وكانوا يعبدونهُ باعتبار كل صفةٍ من صفاتهِ او فعلٍ من افعالهِ فكان يمثَّل على عدة اشكال كلٌّ منها كان الهاً بنفسهِ . فمن الآلهة التي تمثلهُ بعل أَيتان اي الاله القدير و بعل شامان او هامون قيل ومعناهُ الاله المُحرِق او اله النار وكان يُعبَد في قرطاجة . و بعل جاد أي اله السعادة قيل والمراد بهِ المشتري وكانوا يطلقون عليهِ كوكب بعل. و بعل صَفُون أي اله الظلمات او اله الجحيم و بعل بَريت أي اله العهد و بعل فَغُور وكان اله الفجور وفغور اسم جبل بارض موآب كان موضع عبادته . و بعل حَرمون وهو الجبل المشهور المعروف اليوم بجبل الشيخ وكان معدوداً من الجبال المقدسة وفيهِ عدة هياكل لهذا الاله

وكان لهم آلهةٌ من البشر او غيرهم من المخلوقات هم الذين كانت تتجسد فيهم تلك الآلهة فمنهم مَلكَرْت حارس مدينة صور و يقابلهُ هرقول عند اليونان وهو بمنزلة اقنوم من اقانيم بعل أيتان المقدم ذكرهُ وهو اله الغنى والصناعة والملاحة وكانوا حيثما اقاموا يبنون لهُ هيكلاً . و يليهِ عدةٌ كثيرة من الآلهة منهم تاأُوت المذكور قبلاً وهو مخترع الكتابة والعلوم والفنون كهرمس عند اليونان . ومنهم داجُون وكانوا يمثلونهُ بشكل حيوان نصفهُ انسان ونصفهُ سمكة وهو من آلهة البحار. ومنهم تيفُون وهو على شكل ثعبان قيل وهو من آلهة البحار ايضاً وغير ذلك مما لا نطيل باستقرآئهِ

وكان في صور عدة معابد لملكرْت ومثلها في صيدا لعشتاروت وفي هليُوبُوليس ( بعلبك ) و بيبلوس ( جبَيل ) وأَفقا لعشتاروت وأَدُونيس او بعل أَدُوني وكذلك في هيّرابوليس على ان بعضاً من تلك المعابد لم يكن

فيها اصنام ولكن كانوا يكتفون فيها بايقاد النار والبخور . وذكر لوسيان في الكلام على هيكل هييرابوليس انهُ رأى فيهِ تماثيل نخيمة يُتوهم انها آلهة احيآء فانها تعرق وتتحرك وتجيب بنفسها على ما تُسأل عنهُ واذا أُغلق الهيكل ارتفعت من داخلهِ اصواتٌ تُسمَع من الخارج . قال اما غنى ذلك الهيكل فحدّث عنهُ ولا حرج فانهُ ترسل اليهِ من بلاد العرب وفينيقية وارض بابل وكبدوكية وقيليقية و بلاد أشور هدايا لا تحصى من ذهب وفضة ومنسوجات فاخرة وغيرها وقد رأيت كل ذلك بنفسي في مكانٍ محجوب ويقام هنالك من الاحتفالات في الاعياد ما لا يقام نظيرهُ في العالم باسرهِ

وكان الفينيقيون يكثرون من الكهنة حتى كان عند ايزابل بنت أتبعل الصوري اربع مئة وخمسون كاهناً من كهنة البعل واربع مئة من كهنة عشتاروت وكان الكهنة يحلقون شعر رؤوسهم ويلبسون السواد ولم يكن الكهنوت مباحاً للنسآء . وكانوا يقيمون احتفالاتهم الدينية على مشارف من الارض يبنون عليها الهياكل ويغرسون حولها الاشجار العظيمة ويأتيها المحتفلون في الاعياد من كل أوب فيرفعون اليها هداياهم ومحرقاتهم ويُجري الكهنة سنن عباداتهم فيبتهلون باعلى اصواتهم وربما هشّموا اجسادهم بالسيوف والحراب وهي عادةٌ لهم في اوقات الحزن والتفجع . وكانت لهم مواعيد يقرّبون فيها الى بعض آلهتهم الضحايا البشرية واخصّ تلك الآلهة بذلك مُولك في فينيقية وكرونوس في قرطاجة وقد تقدم ان كليهما واحد وكانت تقرَّب اليهما الضحايا من الاطفال. وكانوا يمثلون كلاًّ منهما بهيئة رجلٍ من نحاس قد بسط يديهِ كانهُ يتلقى بهما الضحية المرفوعة اليهِ وعند ارادة التقريب يوقدون تحتهُ ناراً

حتى يحمى ثم يضعون الطفل على يديهِ فيحترق وفي اثنآء ذلك يقرع الكهنة الطبول ويرفع الشعب اصواتهم بالهتاف حتى لا يُسمع صراخ الطفل . وذكر ديودورس الصِقِلّي في وصف صنم قرطاجة ان يديهِ كانتا مبسوطتين مع تصويبهما الى جهة الارض وكانوا يجعلون امامهُ حفرةً يملأُونها ناراً فاذا وضعوا الطفل على يديهِ تدحرج فسقط في الحفرة . وقال غيرهُ بل كان الصنم مجوفاً والنار تحتهُ ويداهُ مصوَّبتان بحيث اذا وُضع الطفل عليهما انحدر الى جوفهِ فالتهمتهُ النار التي تحتهُ ولعل هذه الرواية اصح لما جآء في خرافات اليونان من ان زُحَل افترس ابنآءهُ عملاً بما اشترط عليهِ اخوهُ تيتان حين نزل لهُ عن الملك في خرافةٍ ليس هنا محل ذكرها . قال واكثر ما كانوا يفعلون ذلك عند ارادة التكفير عن ذنبٍ من ذنوب الامة اجتلاباً لرضى الآلهة وكان على الأمّ ان تشهد احراق طفلها من غير ان تجري دمعةً او تبدي أمارة حزن

هذا ما امكن استخلاصهُ من تأريخ هذه الامة الصغيرة التي طبّقت شهرتها آفاق المعمور وتخطى ذكرها اعناق العصور اخذناهُ عن عدة مؤلفاتٍ من اشهر ما كُتب في هذا المعنى وامثالهِ . وهناك رواياتٌ أُخر بعضها مشكوكٌ في صحتهِ وبعضها لا يخلو من مناقضةٍ لبعض ما تقدم فاضربنا عن ذكرها تفادياً من تشويش ذهن المطالع . على ان غالب ما في تاريخ هذه الامة لا مستنَد لهُ الا نقل الرواة لذهاب كتبهم وندرة الآثار الباقية عنهم ومما لا يُنكَر ان الفينيقيين كما كانوا قادة الملاحة واساتذة الصناعة في تلك العصور فقد كانوا ائمة العلوم والفنون وملقّني العقائد الدينية والفلسفية

وعنهم اخذ اكثر الامم المعاصرة لهم ولا سيما اليونان لما كان بين الامتين من قرب الجوار وكثرة المخالطة . ولذلك فانك قلما تجد معبوداً للفينيقيين او اسطورة دينية او ذكر من اشتهر باختراعٍ او عملٍ عظيم الا تجد ما يقابلهُ في عقائد اليونان ومروياتهم مع تبديل صور الوقائع والاسمآء واختلط بين ما اصلهُ فينيقي وما اصلهُ يوناني . وهذا ولا جرم احد الاسباب التي ضاع بها كثيرٌ من حقائق تاريخ الفينيقيين واوقع فيهِ ماذُكر من التباين تارةً والتناقض اخرى . على أنَّا اخذنا من كل ذلك بالاشبه والاقرب والله اعلم وهو سبحانهُ المتفرد بالبقآء لا اله الا هو ذو العزّة والجبروت

## الدخان والبخار

كلاهما ما يتصاعد عن الاجسام بفعل الحرارة وهما كثيراً ما يتشابهان في رأي العين لكن الفرق بينهما ان البخار ارقّ قواماً واخلص مادّةً لانهُ لا يتألف الا من غازات صِرفة حالة كون الدخان لابدّ ان يشتمل على اجزآء سائلة او جامدة وبعبارةٍ اخرى هو بخارٌ غازيٌّ يخالطهُ موادّ غير غازيّة . وذلك ان الجسم عند احتراقهِ لا يستحيل برمتهِ الى رماد وعناصر غازيّة لان ما يتأكسد منهُ تخالطهُ ذرّات من الفحم والموادّ الدهنية واجزآء اخرى من المادة المشتعلة مما لم ينحلّ بالاحتراق

ولما كان الدخان يشتمل على جانبٍ من هذه الاجزآء التي لم يتم احتراقها كان ولا جرم من الفضلات التي تذهب سُدًى وهي قد تكون مقداراً كبيراً من مادّة الوقود ولا يخلو فضلاً عن ذلك من اضرارٍ صحية ولا سيما

في البلدان التي يكثر فيها الايقاد كالمدن الصناعية ذات المعامل الكثيرة . ولذلك كان من همّ العلمآء ان ينقبوا عن طريقةٍ يمنعون بها حدوث الدخان بان يحتالوا على احراق جميع اجزآء الوقود بدون ان يبقى منها باقٍ وذلك انما يتم بزيادة مقدار الهوآء المتخلل للموادّ المشتعلة ليزيد في قوة اشتعالها . وقد زاولوا استنباط عدة اجهزةٍ لذلك نجحوا في بعضها بعض النجاح وافضل تلك الاجهزة ما اخترعهُ تيرّي وما كان منها على طريقتهِ وهي ان يسلَّط على المستوقَد مضخةٌ تقذفهُ ببخار المآء فان هذا البخار لا بدّ ان يصحبهُ مقدارٌ من الهوآء كافٍ لجعل الاشتعال اتمّ . وقد ارتأى بعضهم من عهد قريب ان يُستبدَل البخار بنترات الصودا او نترات البوتاس يُرجَم بهما المستوقَد حيناً بعد آخر لما في هاتين المادّتين من شدة قبول الاشتعال وهذه الطريقة مستعملة اليوم فيما ذُكر في بعض معامل كِدَّرمِنْستَر ودُرهام وغيرهما من بلاد الانكليز

هذا في المستوقدات الصغيرة واما المستوقدات الكبرى من مثل اتاتين الحديد ونحوها فانهُ بعد ان يُصنَع الأَتُّون على الشكل المألوف يُجعل على جدرانهِ الجانبية غُرَفٌ يدور فيها الهوآء الذي يراد ان تزاد بهِ قوة النار وتتخذ لهُ منافذ في الجدران المذكورة بحيث لا ينتهي الى داخل المستوقد الا وهو على درجةٍ عالية من الحرارة فتزداد بذلك قوة الاشتعال . ثم ان اعلى المستوقد مبنيٌّ من آجرٍّ لا تذيبهُ قوة النار وهو على شكل حاجز مثقَّب بثقوب يمرّ فيها الدخان قبل ان يخرج من المدخنة فاذا حمي هذا الحاجز بنار المستوقد وبلغ درجة الاحمرار يحترق الدخان بالضرورة عند نفوذهِ في تلك الثقوب

بحيث لا ينفلت الى المدخنة الا البخار الباقي بعد الاحتراق

واما البخار فعرّفوهُ بانهُ غازٌ غير ثابت و يعنون بذلك انهُ قابل للانتقال الى حالة السيلان اذا انحطت درجة حرارتهِ او عُرّض لضغطٍ شديد . على انهم قد توصلوا اليوم الى تسييل كثير من الغازات الحقيقية وحينئذٍ فقد اصبح الغاز داخلاً في حدّ البخار ولم يبقَ بينهما فرقٌ ظاهر

ثم ان المآء مثلاً يتبخر لأقلّ حرارةٍ تعرض عليهِ وكذلك اكثر السوائل ومن الاجسام ما يتبخر بمجرد مباشرة الهوآء لهُ كالكحل والايثير والبروم واليود وتُعرَف بالموادّ الطيارة . على ان اصلب الاجسام كالنحاس والذهب حتى الالماس يمكن احالتهُ الى بخار اذا بُلغ بهِ الى درجةٍ من الحرارة كافيةٍ لذلك كما ان كل بخارٍ يمكن ان يعود الى حالتهِ الاولى اذا هبطت حرارتهُ الى درجةٍ اسفل من الدرجة التي تبخر فيها وعلى هذا بُني ما يسمى بالتقطير

وقد كان المتعارَف زمناً بين العلمآء ان البخار لا يمكن ان ينشأ من تلقآء نفسهِ ولكن ينبعث عن سطوح السوائل بتحليل الهوآء وانهُ بذلك يمكن ان يبقى منتشراً في الجوّ . غير ان التجربة دلت على غير ذلك فانهُ اذا أُخذت قصعةٌ واسعة ومُلئت زئبقاً ثم غُمس فيها انبوبان زجاجيان مسدودا الاعلى قد مُلئا زئبقاً وفُرّغ منهما الهوآء على نحو ما يُصنَع ميزان الجوّ ( البارومتر ) فان كلاً منهما يدلّ على مقدار ضغط الهوآء على الزئبق الذي في القصعة كما هو معلوم . فاذا أُدخل الى احدهما قليلٌ من المآء بواسطة مبزلٍ اعقف فان المآء لخفتهِ النوعية يصعد الى الفراغ الذي في اعلى الانبوب المعروف بفراغ تُورِتشلّي واذ ذاك لا يلبث عمود الزئبق ان يهبط بعض

ميليمترات . ولا يمكن ان يُنسَب هذا الهبوط الى الكمية القليلة من المآء التي طفت على اعلاهُ ولا الى الهوآء الذي يتضمنهُ هذا المآء على تقدير انهُ قد انفلت منهُ لان هذا الامتحان قد أُجري بعد اغلاَء المآء وطرد الهوآء منهُ فتعيَّن اذ ذاك ان هبوط الزئبق انما كان عن تبخر المآء في الفراغ المذكور وأن لبخار المآء كسائر الغازات قوةً تمددية لانهُ يفعل على عمود الزئبق نفس ما يفعلهُ الهوآء . فاذا أُدخِل بدل المآء شيء من الايثير الكبريتيك كان هبوط عمود الزئبق اعظم كثيراً بحيث انهُ اذا قُدّر أن هبوطهُ ببخار المآء كان ١٢ ميليمتراً فانهُ يبلغ ببخار الايثير الى منتصف الانبوب وبالتالي يكون ضغط هذا البخار معادلاً لنصف ضغط الهوآء الجوّي كما لا يخفى. فتحصّل من ذلك ان البخار يحدث في الفراغ وان حدوثهُ فيهِ يكون دفعةً حال كونهِ يحدث في الهوآء تدريجاً وان لهُ قوةً تمددية الا ان هذه القوّة تتفاوت بين بخار سائلٍ وآخر

## الفضة والمكروب

بقلم حضرة الاديب الياس افندي الغضبان

وقفت على المقالة الآتية في احدى الجرائد الافرنجية فآثرت ان اطرف بها قرآء الضيآء لما فيها من الفائدة وهي هذه

قد ظهر من عهدٍ قريب للدكتور ڤنسان احد الاطبآء العسكريين في فرنسا ان الفضة تقتل المكروب . وذلك ان الدكتور المشار اليهِ بينما كان يفحص انواع المسكوكات فحصاً مجهريًّا وجد ان المكروب اكثر ما يتجمع

على القطع النحاسية منها ثم على القطع الذهبية واقلّ ما يوجد على القطع الفضية . فانهُ فحص قطعةً من ذوات العشرة سنتيمات فوجد عليها نحو ١١٠٠٠ مكروب ثم فحص قطعةً ذهبية فوجد عليها نحو ٣٠٠٠ ولم يجد على قطعة الفرنك زيادةً على ٥٠٠ مكروب ونحو ضعفي هذا العدد على قطعة الخمسة فرنكات

وقد يتبادر الى ذهن المطالع ان السبب في ذلك هو نوع التعامل بهذه القطع فان المسكوكات النحاسية اكثر تنقلا بين ايدي الناس من الفضية وهي ولاشك تمرّ بين ايدٍ اقلّ نظافةً وتعهداً بالغسل . ولكن اذا كانت قطع الفضة اقل تداولا واكثر حفظاً من قطع النحاس فان الذهب ولاشك اقلّ تداولاً من الفضة وهو لا يزال مخبوءًا في ضمن الجُزدانات النقيـة فكان ينبغي ان يكون ما عليهِ من المكروب اقلّ جدًّا مما على القطع الفضية ولكن ظهر بالفحص ان الامر على خلاف ذلك فان المكروب اشدّ ميلاً الى الذهب من الفضة

ثم ان الدكتور ڤنسان لم يكتفِ بما ظهر لهُ من الفحص المذكور ولكن لزيادة تحقق الامر عمد الى امتحاناتٍ وضحت لهُ نتائجها بما لا يقبل الريب . وذلك انهُ اخذ جملة قطع ذهبية وفضية و بعد ان طهرّها بالنار وضع على سطح كلٍّ منها بعض قطراتٍ من مستفرَخاتٍ مختلفة ثم ترك بعضاً منها على درجة الحرارة المعتادة وجعل بعضها في حمّام على ٣٦ درجة من الحرارة . و بعد ذلك تبين لهُ ان القطع الذهبية يمكن ان تعيش عليها جراثيم الحمى التيفوئيدية خمسة ايام وجراثيم الخُناق ( الدفتيريا ) ستة ايام والجراثيم

الصديدية تسعة ايام وان هذه الجراثيم كلها تموت في اقل من ثماني عشرة ساعة اذا وُجدت على سطح قطعةٍ فضية وذلك في الحرارة المعتادة واما اذا كانت على ٣٦ درجة من الحرارة وهي تقارب حرارة جيوب الانسان فانها تهلك في اقل من ست ساعات

فاذا تحقق ذلك علم منهُ ان الفضة سمٌ قتّال للجراثيم المرضية وانهُ يمكن ادخال هذا المعدن في جملة الموادّ الدوائية . على انهُ في سنة ١٨٩٦ لاحظ الدكتور فُولآي في باريز ان الجراح التي تخاط باسلاك من فضة كانت اسرع برءًا من غيرها فأدّاهُ ذلك الى امتحان الحقن بالفضة في عدة امراض . وكيفية ذلك انهُ اتخذ مصلاً صناعياً من مآء وملح قليل ( ٧٠٥ في الالف ) وسخّنهُ ثم اضاف اليهِ غراماً من هبآء الفضة واتخذ منهُ مستحلباً بعد مزجهِ بزيت الخجايا كُول والأوكالبتُول

وقد امتحن الحقن بهذا المستحلب في التدرُّن الرئوي فلم يأتِ الى الآن بفائدة تذكر. لكنهم في المانيا يستعملون الحقن بالفضة بشكل هُلامي (كولويدال) بحيث يمكن ان ينفذ الى جميع انسجة البنية فيستعملونهُ دلكاً او حقناً في معالجة التهاب اغشية الدماغ والحمى التيفوئيدية والتهاب اغشية القلب الظاهرة والباطنة والخُناق والتدرن وغير ذلك ويزعمون انهُ يشفي من كل هذه العلل . اه

اما كاتب هذه السطور فاني وان لم اكن طبيباً اضمن ان الفضة هي انجع دوآء لمن ابتُلي بفقد الذهب لكن الصعوبة كلها في الامتحان . . . . .

## التماثيل الشمعية

الظاهر ان صنع هذه التماثيل قديمٌ جدًّا ولكنهُ ولا شك كان متأخراً عن صنع التماثيل الحجرية والصلصالية لان القصد من تماثيل الشمع الزينة دون الحفظ ولا يُتصور ان يكون ذلك الا بعد التبسط في الحضارة والتماس اسباب التأنق والزخرفة . وقد استُفيد من بعض نصوص التأريخ ان هذه الصناعة كانت معروفة عند اليونان في القرن السادس قبل الميلاد وفيما روى بلينوس الطبيعي ان اول من مثَّل صور الاحيآء بالشمع هو ليسِستراتس السِكيوني في عصر الاسكندر الكبير. وتفننوا فيها بعد ذلك فكانوا يصنعون من الشمع جميع انواع الازهار والفواكه يزينون بها الهياكل ومنازل الكبرآء وكانوا يمثلون الاشيآء الطبيعية تمام التمثيل فيقلدونها شكلاً ولوناً حتى لا تُفرَق بمجرَّد النظر. ومن لطيف ما يُروَى في ذلك ما حُكي عن الفيلسوف سفيّروس والملك بَطلميوس فيلُوپاطُور وكان قد جرى بينهما كلامٌ في البصر وما يجوز عليهِ من الصُوَر المموَّهة فانكر الفيلسوف ذلك وزعم ان الدين لا تقبل التمويه . فلما كانا على المائدة امر بطلميوس ان يوضع على الخوان رُمّان مصنوع من الشمع الملوَّن فما عتَّم الفيلسوف ان مدّ يدهُ وتناول واحدةً من ذلك الرمان وهو يرى انها رمانةٌ حقيقية . ومثل ذلك ما رواهُ لمپريديوس عن هَليُوجَبَل احد قياصرة الرومان في القرن الثالث للميلاد انهُ كان احياناً يفاكه مدعوّيهِ فيضع امامهم صحافاً فيها اطعمةٌ من الشمع تمثل الطعام الذي في صحفتهِ فلا يفطنون لذلك حتى يمدّوا ايديهم ويتناولوا من تلك الاطعمة

ثم انتشرت هذه الصناعة بين الرومان فبلغت عندهم من الاتقان مبلغها عند اليونان على ما تقدم الايماء اليهِ وكان اشرافهم يتخذون تماثيل للمتوفَّين منهم فيمشون بها امام الجنائز . ولكنها لم تلبث بعد ذلك ان انحطت عن منزلتها فلم تعد الى رونقها الا في القرون المتوسطة لما كان اذ ذاك من عناية الكنيسة بصنع تماثيل القديسين . وفي القرن الخامس عشر اعاد فِرُّوكيو البندقي صنعة ليسِستراتس فكان يصنع قوالب يمثّل بها صور اناسٍ من الاحياء . ثم ازدادت هذه الصناعة اتقاناً وكمالاً في القرن الثامن عشر واوائل التاسع عشر وقد أُنشئت من مصنوعاتها عدة معارض مثّل فيها اشهر الاشخاص والوقائع التأريخية منها معرض تُسُّود في لندرا ومعرض كُرِيفِّين في باريز وفي كلٍ منهما ما لا يحصى من الاشخاص ممثلةً بهيئاتها وملابسها وحركاتها الطبيعية بحيث يسبق الى وهم الناظر انهُ يرى اصحاب تلك التماثيل باعيانها . ثم اخذوا يتوسعون فيها الى ما هو ادقّ من ذلك من الاغراض العلمية كتمثيل بعض موضوعات العلوم الطبيعية ولا سيما في علم التشريح فبلغوا في ذلك نهاية الاتقان والابداع . غير انهُ لما كان الشمع سريع العطب يتأثر من ادنى شيء وجدوا ان هذه المصنوعات غير صالحةٍ لدرس الاعضاء لما يقتضي ذلك من تكرار لمسها وتقليبها فعدلوا عن الشمع الى المادة التي يُصنَع منها الورق . وهي ولا ريب اصلب واصبر الا ان كلتا المادتين لا تصلح الا لتمثيل ظواهر الاعضاء بحيث لا يستغني الدارس عن مزاولة التشريح فعلاً كلما اراد الوقوف على شكل الاعضاء الباطنة . فاخذوا يبحثون عن مادةٍ يستخدمونها لذلك واخيراً توصل الدكتور أُوزُوّ الى صنع

الاعضآء التشريحية من مادَّةٍ يعجنها بمسحوق الفلّين يفرغها وهي طريئة في قوالب معدنية فاذا جفَّت كانت اصلب من الخشب . وبهذه الطريقة تأتى لهُ ان يصنع جسداً كاملاً بجميع اعضآئهِ الظاهرة والباطنة بحيث يمكن تفكيك كل جزءٍ وحدهُ واعادتهُ الى موضعهِ وجميعها لا تُفرَق عن الاعضآء الطبيعية

## كلاب القضآء

جآء في احدى المجلات الفرنسوية الحديث الآتي نرويهِ بقصد الفكاهة قالت

اعتاد الاميركان ان يستخدموا الكلاب لتعقُّب المجرمين وهي عادةٌ قديمة عندهم فانهُ قبل زمن الحرب المعروفة بحرب الحرّية او العتاق كانت تُستخدَم لاحتياش العبيد الآبقين وفي بعض الولايات الجنوبية تُرسَل للقبض على المسخَّرين الذين يفرّون من العمل . وقد ذهب احد اهالي بياتريس بنبراسكا من الولايات المتحدة وهو الدكتور فُولتُون الى ما هو ابعد من ذلك فاستخدم هذا الصنف من الكلاب بمنزلة جواسيس للشِحنة تكشف عن احذق المجرمين واقدرهم على التنكُّر

فان الدكتور المذكور عندهُ حظيرة تشتمل على عشرين كلباً من الكلاب العجيبة وقد اشتهرت هذه الكلاب بصفتها المذكورة حتى انهُ لايكاد يمرّ اسبوع حتى ترسل الحكومة فتستخدمها للبحث عن اشيآء مسروقة والقبض على الجناة . وهي تُستدعَى من جميع انحآء الولاية باجرة معيَّنة هي ١٥ ليرة استرلينية في اليوم واذا ادركت المطلوب كان لها فوق ذلك

جائزة سنية ولذلك اصبح محل الدكتور فولتون من المحلات الغنيّة

وهذه الكلاب موكولة الى عهدة ابن الدكتور ومعهُ كلاّبان ماهران يؤدّبانها . وهذا التأديب ليس فيهِ شيءٌ من السرّ ولكن مرجعهُ الى دقة اختيار الكلب واختبار اخلاقهِ لان لكل حيوان معاملةً مخصوصة تنطبق على طبيعتهِ . اما هذه الكلاب فهي شرسة الطباع متقلبة الاطوار لها بدواتٌ عنادية الى آخر ما يتصور فاذا لم يُوقَف على حقيقة طباعها قبل الشروع في تأديبها فقد يُفضَى بها الى ان تعتاد عاداتٍ يتعذر قلعها فيما بعد وهي مع شراستها وقوة عنادها اذا تولى رياضتها خبيرٌ باخلاقها كانت تحت يدهِ في منتهى الطواعية والانقياد

ومما حدّث بهِ الدكتور فولتون احد زوّارهِ عما تفعل كلابهُ ان جماعةً من اللصوص دخلوا حانوتاً للسرقة فاتفق ان احدهم بينما كان يعدو سقطت قبعتهُ فتركها في طريقهِ ومضى فكانت القبعة اهدى دليل للكلاب للوقوع على اللصوص فانها شمتّها ثم ذهبت تتبع آنافها حتى وقفت امام منزلٍ علمت الشحنة ان اربعة اشخاصٍ مُريبين كانوا قد دخلوهُ في صبيحة ذلك اليوم فاستقرّوا فيهِ هنيهةً وطلبوا طعاماً ثم انصرفوا فعادوا الى تتبُّع اثرهم الى حيث عرَّجوا مرةً اخرى ثم الى مبيتهم الذي باتوا فيهِ تلك الليلة

ثم انهُ في احدى عطفات الطريق افترق اللصوص فاخذ اثنان منهم في جهة الشرق واثنان في جهة الشمال فتتبعت الكلاب اولاً جهة الشمال فادركت اللصين اللذين ذهبا فيها ثم عادت فاخذت في جهة الشرق فادركت اللصين الآخرين فكُبّل الاربعة بالحديد ولم يمضِ الا اربع

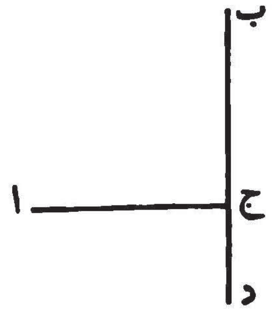
وعشرون ساعة حتى كانوا تحت الاقفال

واتفق مرةً اخرى أن سُرق بغلٌ من احد الاصطبلات في لويڤيل فالتجأ صاحبهُ الى كلاب القضآء فاقتيدت الى المكان الذي سُرِق منهُ البغل وأشمُّوها خِرَقاً كانت هناك من كيسٍ عتيق ظنوا ان اللصوص لا بد ان يكونوا قد لفّوا بهِ قوائم البغل ثم اطلقوها فلم تلبث ان وُجِد البغل والسارق

ومما حدَّث عنها ان رجلاً في فربوري يقال لهُ باكر قتل اخاهُ وامرأة اخيهِ فطلب حاكم الموضع كلاب القضآء بالتلفون فجآءتهُ مع كلاَّبها في جمهورٍ كبير. وكان على سرير القتيل قطعةٌ من ثياب القاتل فاشمُّوها للكلاب ثم اطلقوها وأُتبعوا بها عدةً من الرجال لان الرجل كان معروفاً بقوّةٍ لا تقاوَم. وكأن الكلاب ادركت خطورة الامر فاندفعت تعدو ثم اخترقت حقلاً من الزرع وفيما هي خارجةٌ منهُ صادفت بعض خراطيش فارغة وجدت فيها ريح الرجل فجدَّت في عَدْوها وبعد ان قطعت نحو اثني عشر كيلومتراً على الطريق العام وقفت عند سَرَبٍ تحت الارض فنزل الرجال الذين يتبعونها الى السرب وبحثوا فيهِ فلم يجدوا احداً فعادت الكلاب الى الجري وقد اشتدّت حماستها واسرعت حتى لم يكد الرجال يستطيعون لحاقها وبعد ان قطعت مسافة اخرى انتهت الى حوشٍ وكان امام باب الحوش آثار اقدام فاخترقت الى الداخل من بين خصاص الواح الحوش ثم عدلت يمنةً الى جرينٍ هناك (وهو البيدر حولهُ جدار) وكان باكر مختبئاً فيهِ فلما احسَّ بالامر وعلم انهُ لا نجاة لهُ اطلق الرصاص على دماغهِ فخرَّ صريعاً

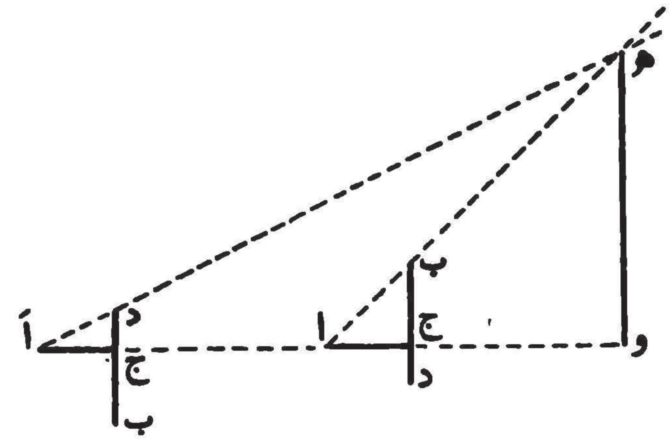
## ابسط آلة لقياس علوّ الاشباح

اخترع المسيو مالاسي آلةً في منتهى البساطة يُتوصل بها الى قياس علوّ الاشباح التي يتعذر الوصول اليها وذلك بدون استخدام الحسابات الهندسية. وهي تتألف من قطعتين من الخشب تركّب احداهما مع الاخرى على هيئة زاوية الصنّاع كما ترى في الشكل الاول بحيث ان ا ج = ب ج = ٢ ج د



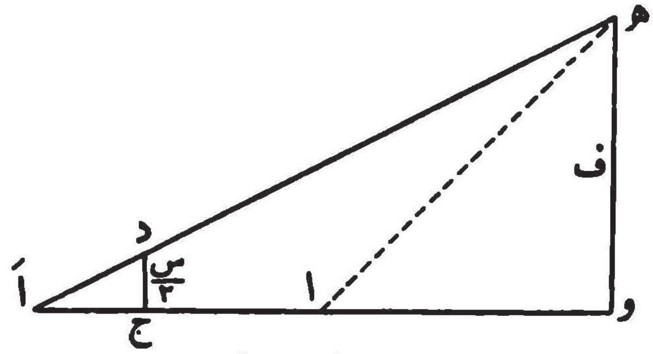

( ش ١ )

فاذا أُريد قياس شبحٍ عالٍ كشجرةٍ او برج تُركز الآلة على الوضع الذي في وسط الرسم من الشكل الثاني بحيث يكون ب ج د تامّ العمودية ثم توضع العين عند ا وتقدّم الآلة او تؤخّر حتى يمرّ الخط ا ب بقمة الشبح كما ترى في الرسم ثم يُعيَّن في الارض مكان النقطة ا . وبعد ذلك تُنقَل الآلة الى الوراء بعد ان يُجعل عاليها سافلها كما في الوضع الذي في طرف الرسم ثم




( ش ٢ )

توضع العين عند اَ وتقدَّم الآلة او تؤخَّر كما فُعل في المرة الاولى الى ان يمرّ الخط اَد بقمة الشبح وذلك مع جعل اَج على ارتفاع ا ج وجعل د ج ب عمودياً كما ذُكر اولاً . ثم يُعيَّن في الارض مكان النقطة اَ وتقاس المسافة التي بين ا و اَ فتلك ارتفاع الشبح المطلوب



(ش ٣)

ولبرهان ذلك لنعبّر عن هذا الارتفاع الذي هو خط ﻫ و بحرف ف (ش ٣) وعن المسافة بين ا و اَ بحرف ن وبين اَ و ج بحرف س فيكون لنا من ذلك

$$\frac{\text{ف}}{\text{اَو}} = \frac{\text{دج}}{\text{اَج}} \quad \text{لكن دج} = \frac{\text{س}}{٢} \quad \text{و اَج} = \text{س} \quad \text{فيكون} \quad \frac{\text{ف}}{\text{اَو}} = \frac{١}{٢}$$

ثم ان اَو مركب من خطين احدهما ا اَ وهو الذي عبرنا عنهُ بحرف ن والآخر ا و وهو في المثلث القائم الزاوية المتساوي الضلعين ا و ﻫ = ف لان المثلثين (ش ٢) ا ج ب و ا و ﻫ متماثلان وج ب = ج ا

$$\text{وعلى ذلك فان} \quad \frac{\text{ف}}{\text{ف} + \text{ن}} = \frac{١}{٢} \quad \text{اي ٢ ف} = \text{ن} + \text{ف}$$

لكن يبقى ان هذا القياس انما يؤخذ على ارتفاع العين لا على الارض فلكي يتحرر القياس يمكن ان تضاف المسافة التي بين العين والارض الى طول ن المقيس على الارض فيكون الارتفاع الحقيقي للشبح

## فوائد

منع العطاس — من الوسائط المشهورة لمنع العُطاس ان يُضغط بطرفي السبابة والوسطى حول اصل وترة الانف مدة خمس دقائق أو نحوها وهي واسطة مزعجة وقد تضطرّ الى ضغط شديد يكون احياناً مؤلماً . وافضل منها

واسهل كثيراً ان يُبادَر الى غسل الوجه بالمآء البارد فانهُ مهما كان التهيج الداعي الى العطاس شديداً يسكن في الحال

# اسئلة واجوبتها

دير المخلّص ـ اجمع النحاة على ان آخر « جوارٍ » ونحوهِ يُحذف في حالتي الرفع والجرّ للتخفيف . ثم التنوين فيهِ مذهبان احدهما انهُ لما حُذِف آخر هذا الاسم دخلهُ التنوين على حدّ دخولهِ في نحو «قصاع » لانهُ قد صار على وزنهِ وهو على هذا القول تنوين صرف . والمذهب الآخر انهُ لما سكن آخر جوارٍ في الحالتين المذكورتين جُعل التنوين بدلاً من الحركة الملقاة عن اليآء فهو تنوين عوض . اه ملخصاً عن شرح مفصّل الزمخشري لابن يعيش

فاولاً ان الثقل الذي يذكرونهُ مسلَّم في جوارٍ المرفوع واما المجرور فانهُ يُجَرّ بالفتحة كسائر الاسمآء الغير المنصرفة والفتح لا ثقل فيهِ فكان يجب ان يبقى آخرهُ ثابتاً كما يثبت آخر المنصوب لانهما بصورةٍ واحدة فمن اين جآء الثقل ولِمَ لم يُعتبر هذا الثقل في المنصوب ايضاً . وثانياً كيف يصح ان الكلمة الواحدة تكون مصروفة في حالتي الرفع والجرّ وغير مصروفة في حالة النصب وما الداعي الى هذا التفريق . وثالثاً مقتضى المذهب الثاني ان آخر جوارٍ المجرور ساكن كالمرفوع فكيف ذلك واذا كان ما لا ينصرف يُجَرّ بالفتحة فلمَ حُذِفت في جوارٍ ثم لِمَ كان حذفها في الجرّ دون النصب .

ارجو الجواب على ذلك كلهِ مع ابدآء رأيكم الخاص في هذه المسئلة ولكم الفضل

مستفيد

الجواب ـ اما الثقل الذي يذكرونهُ فهو باعتبار الضمّ والكسر المقدّرين على اليآء ولو اعتبروا الصورة اللفظية لكان آخر المنصوب اولى بالحذف من آخر المرفوع لان الفتحة تظهر فيكون آخرهُ معها متحركاً والضمة تقدَّر فيكون آخرهُ ساكناً ولا شك ان الساكن اخف من المتحرك . لكن العجب انهم يعتبرون في مثل هذا الحركة المقدَّرة ويهملون اعتبار الحركة الظاهرة مع ان المسئلة كلها لفظية ومع ان الممنوع من الصرف لم يجُرّ بالفتحة عوض الكسرة الا للتفادي من هذا الثقل . واما القول بان نحو جوارٍ قد صار بعد حذف آخرهِ منصرفاً فانهُ فضلاً عما فيهِ من اختلاف الحكم في الكلمة الواحدة كما ذكرتم لا مساعد لهُ من القياس لان من القواعد المقررة عندهم ان المقدَّر كالمذكور ولذلك تُعتبر اليآء المحذوفة في نحو جآءتني جوارٍ كالياء الثابتة في نحو جآءت الجواري فتقدَّر الضمة على الاولى كما تقدَّر على الثانية

واما رأينا الخاص في هذه المسئلة فالذي عندنا انهم حذفوا آخر جوارٍ وما جرى مجراهُ في حالتي الرفع والجرّ حملاً على قاضٍ ونحوهِ لمجرَّد المناسبة اللفظية ولذلك نوّنوهُ في هاتين الحالتين مع انهُ ممنوع من الصرف لثبوت المانع باعتبار تقدير المحذوف . واما ترك تنوينهِ في حالة النصب فلأن التنوين مع بقآء حركة الاعراب غير مخصوص بقاضٍ ولا غيرهِ فهو في ذلك مثل بقية الاسمآء لانك تقول رأيت قاضياً كما تقول رأيت كاتباً فلم يبقَ وجهٌ للحمل ولذلك جرى على ما يستحقهُ في نفسهِ والله اعلم

# فكاهات

## ليلة العيد (١)

جآء الى القاهرة لعهد الاحتلال الانكليزي فتى في السابعة والعشرين من عمرهِ يدعى جورج كان قد أوصى بهِ بعض معارف ابيـهِ من الانكليز وقدمهُ الى احد قوّاد الجيش الانكليزي . وكان لجورج معرفة كافية في اللغة الانكليزية والمام ببعض اللغات الاخرى وهو سريع الحركة متوقد الفؤاد فحظي عند القائد وعينهُ ترجمانًا لهُ براتبٍ لم يكن يخطر لهُ ان يناله . وكان شديد الحرص على نفسهِ بعيدًا عن الاشتغال بالملاهي واسباب الترف والتبذير فمضت عليهِ سنواتٌ قلائل جمع فيها ثروةً صغيرة

وكان في القاهرة اسرةٌ جآءت القطر المصري من زمنٍ بعيد فتعرف ببعض افرادها بجورج وتمكنت الصداقة بينهما فكان جورج يزورهم في بيتهم . وكان لهم ابنةٌ تدعى حنةٌ فاضمروا بعد ما رأوهُ في جورج من حسن الصفات ان يزوجوها بهِ لتحققهم انها ستكون في غاية الراحة والنعمة فكانوا لا ينفكون عن ملازمة جورج في اوقات فراغهِ ودعوتهِ الى سهراتهم وتنزهاتهم ومشاركتهم في الطعام على الاقل اربع مرات في الاسبوع . ولم يكن من رأي جورج ان يكثر مثل هذه الزيارات والمخالطات ولكنهُ رأى في جمال حنة ما يقتادهُ الى اجابة دعوتهم ولم تمضِ ايام كثيرة حتى شعر جورج بتمكن الحب في فؤادهِ وأصبح لا يحولهُ شيء عن الافتكار بحنة والاهتمام بالاقتران بهـا . وكان ذووها يلاحظون ذلك منهُ فيبتهجون في نفوسهم ويظهرون التجاهل شأن الماهرين في نصب الحبائل لتزويج بناتهم وهم يعتقدون ان بقآء الابنة في البيت حملٌ عظيم ومصيبة لا تطاق

اما حنة فكانت بديعة في الجمال الى غايةٍ لا تحاكى حتى لو درسها الرسام شهرًا

---

(١) معرَّبة عن الانكليزية بقلم نسيب افندي المشعلاني

والنقاش اشهرًا لا يستطيعان ان يريا اقل خلل في تركيب جسمها وتكوين بنيتها وتقاطيع هيئتها . لكن يظهر ان كل ما أُودع من الجمال والكمال في ذلك الهيكل البشري لم يكن الا خارجيًّا فلم يصل الى داخلهِ شيءٌ منهُ فكانت اشبة بتمثال من النحاس ترى في ظاهرهِ منتهى قدرة الناقش ولكنك اذا فحصت باطنهُ تراهُ فارغًا خاويًا . فانها كانت بليدة العقل قليلة المدارك لا تدري من الصفات الادبية شيئًا واما الاعمال اليدوية والاشغال التي يُفرَض على كل سيدة ان تتقنها فلم تكن تتنازل الى الاهتمام بها ولم تكن والدتها تهتم بذلك ايضًا وكانت اذا نبهها احد الى وجوب تعليم ابنتها وتدريبها على الواجبات البيتية والعلوم تقول دعوها تفرح بصباها فاني لا اخاف عليها لانهُ اذا رأى جمالها خاطبٌ لا يعود يسأل عن شيءٍ آخر وفوق كل ذلك فانني لن ادعها تقترن الا بغنيٍّ يكفيها مشاقَّ العمل ويكتفي منها بالنظر الى هذا الجمال الرائع وعبادتهِ صباحًا ومسآءً

وقد صدق ظن والدة حنة في جورج فانهُ بعد اغترارهِ بجمالها وسقوطهِ في شرك الحب لم يترك لفطنتهِ سبيلاً الى اختبار اخلاقها بل اصبح من رأي والدتها في انها زهرة نادرة لم توجد الا للنظر والشم . وزاد بهِ الوجد والهيام فاغتنم الفرصة يومًا كان فيهِ يتناول الطعام في بيت ذويها ففاتحهم في امر حبهِ لها وسألهم قبول حطبتهِ اياها . فما صدق أولئك ان سمعوا هذا الاعتراف ولكنهم اتباعًا للعوائد راوغوهُ في الجواب وادّعت الام ان ابنتها لا تزال صغيرة السن وانها لا تستطيع مفارقتها ثم رفعت يدها الى عينها لتمسح دمعةً لم توجد هنالك قط وانتهى الحديث على ان يتشاوروا في الامر ويعطوهُ الجواب في الغد . فقضى جورج ليلتهُ على احر من الجمر وما صدّق ان جآء المسآء الثاني واخذ الجواب بالايجاب بعد ترددٍ طويل فألبس حنة خاتمًا ثمينًا كان قد استحضرهُ معهُ وطلب اليهم ان يسرعوا في اعداد جهازها لانهُ يود ان يتزوج حالما يفرغ من ترتيب منزلهِ في اقل من شهر

وبعد نهاية الاجل المضروب اقترن جورج بحنة وسكنا بيتًا جميلاً وغرق جورج في بحر الملذات وتسنمت حنة ذروة مجدها وسرورها فكانت المالكة المطلقة الارادة

وكان زوجها من اطوع رعاياها واكثرهم تفانياً في القيام باوامرها فلم يكن يعترض على ما تفعلهُ من الانفاق والاسراف والتبذير وزيادة عدد الخدم والحشم بل كان يقدم لها من امواله ِ جميع ما تطلبهُ فلم يشعر بعد حين الا وقد كادت تفرغ ثروتهُ ولم يبقَ لهُ من الاموال التي جمعها سوى الشيء اليسير . فقال لها يوماً ينبغي ايتها العزيزة ان نحتاط في امر نفقتنا لاننا اذا دمنا على هذه الحالة فقدت كل ما جمعتهُ واصبح راتبي غير كافٍ للقيام بمطالبنا الضرورية . فقالت حنة انني لم اولد ايها العزيز لاكون كاتبة حاسبة فلا تؤمل ان اتعب افكاري بمثل هذه الحسابات بل انا ارى ما يجب اجراؤهُ لنحافظ على المعيشة التي الفناها ولا ننزل عن الدرجة التي عرفنا الناس بها فدبر انت بنفسك امر دخلك لان عليَّ تدبير باب الانفاق وعليك تقديم المال

وانتبه جورج ولكن بعد فوات الوقت الى ما وقع فيه ِ من مرارة العيش حين لم يبقَ لهُ من المال سوى ما يتقاضاهُ من مرتبه ِ الشهري وقد رأى في زوجته ِ سوء التدبير وصلابة الرأي وهي مع ذلك لا تذعن لاوامره ِ ونصائحه ِ بل تعتقد فيه ِ الشح وعدم معرفة قواعد السلوك . فتنغص عيشهُ وسعى في اصلاح احواله ِ البيتية ولكن على غير جدوى واذ ذاك اضطرَّ الى قرع ابواب اخرى للعمل علهُ يكسب منها ما يضيفهُ الى مرتبه ِ ليقوم بمطالب زوجته ِ . ورزقهما الله ابنةً سمياها أليس وكانت مثال والدتها في الجمال فاسرع جورج واحضر لها مربيةً انتقاها بعد بحث طويل وعلق عليها آمالهُ في تربية ابنته ِ بحيث لا تكون كوالدتها . اما حنة فلم تكن تهتم بابنتها قط كسائر امور بيتها ولم يكن لها من همّ الا تزيين نفسها واثوابها وتوفير اسباب العظمة والفخر

وبقيت هذه الاسرة على ما ذكرنا الى شتآء سنة ١٩٠٢ فلم يطرأ عليها من التغيرات في احوالها الا الشيء القليل فان جورج كان قد انتقل من مركزه ِ الى نظارة الحربية بسبب سفر القائد الى بلاده ِ فزاد دخلهُ وقل عملهُ اليومي واتسع وقتهُ لاعمالٍ اخرى كانت تحفظ ميزانية نفقته ِ ومطلوبات زوجته ِ . وكانت أليس قد بلغت سن الصبا وفاقت والدتها في الجمال ولكنها لم تكن نظيرها في الصفات المذكورة فكانت تساعد الخدم في الاعمال البيتية وتلاحظ بنفسها ما لا تهتم والدتها ان

تفتكر فيهِ وكانت تكره البطر والاسراف وكثيرًا ما تستآء من والدتها حين تراها كل يوم في حلة جديدة وتقول مسكين ابي . . . واما والدتها فلم تغير الايام من صفاتها شيئًا بل زادتها تيهاً بنفسها وسعياً ورآء الزينة والتبرُّج

ومرض يوماً جورج مرضاً اوجب ملازمتهُ البيت فاستدعى احد كتبة الديوان ليأتيهُ يومياً بالاعمال الضرورية ليعملاها معاً وكان الكاتب المذكور يقال لهُ اديب وهو فتًى في مقتبل الشباب رزين عاقل ذكي الفؤاد وكان جورج يميل اليهِ كثيرًا ويستحسن سلوكهُ . فجآء هذا الى بيت جورج ولما دخل استقبلتهُ أليس فاخبرها انهُ جآء بنآء على طلب والدها فادخلتهُ اليهِ ولما انهى العمل عاد الى بيتهِ وقد اشتغلت افكارهُ بتلك الطلعة الملائكية التي قابلتهُ في بيت رئيسهِ جورج . واستدعت الحال عودة اديب اياماً متعاقبة الى ذلك البيت فكان يرى في كل يوم أليس ويخرج حاملاً من حبها احمالاً ولكنهُ تجلد فلم يعلم احد ما حلَّ بهِ وهو يعتقد انهُ انما يرجو المستحيل

وشفي جورج فعاد الى عملهِ في الديوان و بطلت زيارات اديب ولكنهُ كان دائم القلق كثير البلابل والافكار وقد تمثلت لهُ تلك الطلعة الساحرة في عملهِ وراحتهِ وشغلت جميع دقائق حياتهِ . اما أليس فأعجبها اديب جدًّا وكانت تشعر من حبهِ بمثل ما يشعر بهِ من حبها وتتوق الى رؤيتهِ وقد رأت الايام بعد انقطاعهِ اعواماً

وكان يتردَّد على بيت جورج ايضاً شابٌّ يقال لهُ عزيز من معارف اهل السيدة حنة وكانت هذه تميل اليهِ كثيرًا لكونهِ يشابهها في الاخلاق فانهُ كان من مستخدمي الحكومة براتب لا يتجاوز الفاً وخمسمائة غرش كان ينفقها بين اوائل الشهر واواسطهِ على ملابسهِ وركوب العربات والجلوس في القهوات حتى اذا بلغ اليوم العشرين من الشهر ابتدأ في اقتراض النقود من رفاقهِ وهو يعد بوفآئها قريباً . وكان اذا جآء عزيز بيت جورج لا بد ان يصحب معهُ باقة من الازهار يقدمها الى السيدة حنة ثم يجلس فيحادثها وهو في كل دقيقة ينظر الى حذآئهِ الاصفر الجميل ثم ينتقل الى تنفيض ما ربما علق على ثيابهِ الجديدة من الغبار بمنديلهِ الحريري المنضوح بالطيب أو يخرج من جيبهِ من حين الى آخر ساعتهُ الذهبية . فكانت السيدة حنة اذا رأتهُ نسيت كل

شيء واهتمت بمجادثته وهي تقول في قلبها آه يا ليت زوجي عنده نصف ما عند عزيز من الذوق وآداب السلوك ولكن لا بأس فلن ادع هذه الفرصة تفوت أليس . وهكذا عقدت النية على اهدآء ابنتها الى هذا الشاب فكانت اذا خلت بها تثني على صفاته واذا قدم تدعوها لمجالسته . اما هذه فكانت فضلاً عن اشتغال بالها بأديب تكره عزيزًا كراهة قلبية وتأنف من سيرته الدالة على سخافة العقل وقلة الادراك

وكان اديب يعلل النفس من يوم الى آخر ويفكر في طريقة تمكنه من زيارة بيت رئيسه والتمتع بمشاهدة أليس . فلما جآء يوم اول السنة انتهز الفرصة لتأدية واجبات العيد فقصد بيت جورج وهو يقدم رجلاً ويؤخر اخرى حتى بلغ الباب وكأن رسول قلبه قد سبقهُ فما دخل الباب حتى كانت أليس قد أتت لاستقباله فتكلمت لحاظها في تلك النظرة بما لا تسعهُ المجلدات الضخمة . ولما دخل استقبلهُ جورج احسن استقبال اما السيدة حنة فنظرت اليه شزرًا وبعد قليل نظرت الى ابنتها فقالت لها قومي يا أليس واستعدّي فقد أزف موعد مجيء عزيز ليأخذنا في العربة الى الجزيرة حسب الاتفاق . فقامت الابنة بعد ان القت على اديب نظرة لم يخفَ عليه معناها لكن رابهُ ما رأى لعزيز من الدالة على بيت جورج فقال في نفسه لعلهم يريدون مصاهرتهُ واذا كانت هذه هي الحقيقة فقد انتفى آخر ما بقي لي من الامل . ثم انتظر ريثما تناول القهوة فاستأذن فألحّ عليه جورج ان يزورهم في كل اسبوع ولم يسمح لهُ بالخروج حتى وعدهُ ان يفعل . ولما خرج من البيت توجه توًّا الى قهوةٍ على طريق الجزيرة فرأى بعد قليل عربة تقل أليس ووالدتها وبازآئهما عزيز في ثيابٍ جديدة وزينة فاخرة ورأتهُ أليس فصبغ الاحمرار وجهها اما اديب فكأن غشاوةً غطت عينيه وتأكد ان لا نصيب لهُ في هذه الابنة

وكان اديب يزور بيت جورج حسب وعده في يوم استقبالهم فيزيد حب جورج لهُ لفرط ادبه وطلاوة حديثه وكمال آدابه . اما حنة فكانت تنحاز الى جانب عزيز اذا وُجد وتشاغلهُ بحديثها طول المسآء أو تذهب الى غرفتها فتنام اذا لم يجئ ودامت الحال على هذا المنوال الى مسآء العيد الكبير فألحت السيدة حنة في طلب

الذهاب لحضور صلاة نصف الليل في كنيسة الحمزاوي . فامتنع جورج من الذهاب معهما لوفرة اشغاله فقالت حنة انهمـا ستذهبان بصحبة عزيز فلا خوف عليهما وكانت ارادتها دائماً غالبة كما علمنا من قبل فلم تجد ممانعاً لرغبتها . ولم يرُق لأليس مرافقة والدتها وعزيز لانها كانت تبذل جهدها في الابتعاد عنهُ ولكنها فكرت انهُ لا بد من وجود اديب هناك ايضاً فتراهُ ولو عن بُعد . وذهب الثلاثة الى الكنيسة فكانت السيدة حنة تستلفت انظار الجميع بهيئتها الفخيمة ولا سيما ملابسها التي انفقت عليها مبلغاً كبيرًا من المال وخصصتها لتلك الليلة . اما أليس فأصابها في وسط الحفلة دوار عظيم عقبهُ ألم في رأسها فلم تستطع الوقوف وتوسلت الى والدتها ان يرجعوا الى البيت فقالت امها تشددي يا بنية فانني ما جئت الى هنا لاترك الكنيسة قبل انتهآء الصلاة ولا يقدر عزيز ان يرجعك ويتركني هنا وحدي . فصمتت أليس مكرهة ولكنهُ زاد بها الألم فلم تقوَ رجلاها على حملها وكادت تسقط الى الارض لولم تبادر والدتها الى احتضانها وهي تشتم الاتفاق وتؤنب ابنتها على المجيء . ثم حانت منها التفاتة واذا اديب بالقرب منها فأشارت اليهِ فأتى فكلمتهُ ان يوصل أليس الى البيت في العربة ويعود حالاً . فاستغرب اديب الامر جدًا ولم يصدق اذنيهِ لاول وهلة وكانت أليس قد عجبت اكثر منهُ فقالت لوالدتها وهل من العدل يا اماه ان يحرم اديب حضور الصلاة . فقال اديب لا بأس يا سيدتي فسأعود في الحال ولا يفوتني الاّ القليل . ثم اخذ بيد أليس وما صدّق ان خرجا من فسحة الكنيسة وبلغا العربة فركباها واشارا الى السائق بالمسير وهاج في صدر اديب بركان من العوامل لكنهُ لم يجد الى النطق سبيلاً وعلم كما علمت أليس ان الفرص تمر مر السحاب وان التقادير أوجدت لهما هذه الفرصة فلا ينبغي تركها وتغلب اخيرًا على حيآئهِ فقال ألا تزالين تشعرين بألم ايتها السيدة . قالت لا فاني مذ لمست يدك شعرت بتمام القوة والعافية . قال أفتريدين ان ارجعكِ الى الكنيسة اذًا . قالت كلا فاذا عدت الى الوقوف بجانب هذا الغليظ عزيز فلا بد ان يعاودني الدآء . فبددت هذه الكلمة جميع شكوك اديب في وجود علاقة بين حبيبتهِ ومناظرهِ فتنهد طويلاً وقال الحمد لله . قالت ولمَ . قال لانني ظننتكِ تحبينهُ

وانهُ سيكون خطيبكِ كما سمعت . قالت ان والدتي تسعى جهدها في ذلك ولكن هيهات ان ذلك لا يكون وفيَّ عرقٌ ينبض . فلم يقوَ اديب على ضبط نفسه زيادةً على ذلك فأخذ يد أليس بكلتا يديهِ وقال وهل تحبينَ سواهُ اذًا . فنظرت اليهِ نظرة طويلة ثم تنهدت ومسحت دمعةً ترقرقت من مقلتها ولم تبدِ جوابًا . فقال اديب اواه ما اتعسني وما اعقم آمالي وهبي ان ما كنت اظنهُ غير صحيح فمن أين لي ان اصل الى ما ارجوهُ . قالت وما هو الذي كنت تظنهُ وما الذي ترجوهُ . قال كنت اظنكِ خاليةَ الصدر من حبي فكان في عزمي ان استعطف فؤادكِ على فؤادي الجريح واما وقد علمت انكِ رثيتِ لعذابي وتنازلتِ لحبي فمن يضمن لي قبول والديكِ وسماحهما لي بكِ . فقالت وقد القت رأسها الى صدرهِ انت في غنى عن استعطافي يا اديب فقد احببتك منذ زمانٍ طويل واما قبول والديَّ فصعب ولكنهُ غير مستحيل . فطوَّق اديب خصرها بذراعيهِ وقال أحقيقةٌ ما انا سامع وهل تحبينني حبًا صادقًا يا حياتي . قالت قد اعطيتك يدي فاما ان اكون عروسًا لك او للحد

وكانت العربة قد وقفت امام بيت جورج فدخلت أليس بعد ان ودعت اديبًا ورسم على يدها قبلةً كانت اثمن واصدق عربون لخطبتهِ ثم عاد الى الكنيسة . وكانت السيدة حنة وعزيز لا يزالان في موقفهما فاخبرها بقدوم العربة فلم يهتما بسؤالهِ عن أليس فعاد الى بيتهِ وصرف ليلة من اسعد لياليهِ يراجع في ذاكراتهِ ما دار بينهُ وبين حبيبتهِ من الكلام

وبعد ذلك بايامٍ دار حديث بين حنة وابنتها أليس في امر الزواج فقالت حنة لا بد انكِ لاحظتِ يا أليس ميل عزيز اليكِ وقد سألني يدكِ فوعدتهُ بذلك ولم يبقَ سوى تعيين يوم الفرح فقالت أليس ومَن اعلمكِ يا اماه انني راغبة في الزواج ولو كان ذلك لكان عزيز آخر من افكر فيهِ لانني لا اطيقهُ . فقالت والدتها وقد استشاطت غيظًا ومتى كان للبنات اللواتي من سنكِ حق في انتقاء ازواجهنَّ او رفض ما يدبرهُ لهنَّ والدوهنَّ . أوَلا تدرين يا هذه ان عزيزًا اجمل شبان العاصمة واحسنهم ذوقًا واتقنهم لباسًا فهل رأيتِ بين كل معارفنا من يشبههُ في شيء من

ذلك . قالت كلا وانما لم اره يشبه احدًا في الرصانة ووفور العقل بل هو فظ قليل الادراك لن تحتمله نفسي . فقالت امها اخرسي ايتها الجاهلة وانني اخطأت بمفاتحتكِ في هذا الحديث واخذ رأيكِ فيه مع انني عالمة ان لا ارادة لكِ سوى ارادتي . والآن اخبركِ ان زفافكِ الى عزيز قد تقرر ولا بد منهُ قبل حلول العيد القادم . ولما قالت هذا ذهبت الى غرفتها تاركةً أليس بين التنهد والدمع

ولما جآء جورج في المسآء رأى ابنتهُ حزينة النفس وكان يحبها حبًّا شديدًا فطارت نفسهُ شعاعًا وجعل يسآئلها عما بها ثم اخذها الى غرفتهِ وكانت والدتها في غرفة الاستقبال مع عزيز . واجتهد الاب في ملاطفة ابنتهِ فاخبرتهُ بما دار بينها و بين والدتها من الحديث ثم اعترفت لهُ بحبها لاديب . وكان ذلك الوالد الحنون يصغي بمنتهى اللطف فأثر فيهِ كلام ابنتهِ ولا سيما وهو عالم بحالة زوجتهِ فتحركت فيهِ العواطف الوالدية وقال لابنتهِ لا تحزني يا أليس فانني لا ارضى بهذا المخنث الذي تروم والدتكِ ان تنغص عيشكِ بهِ كما نغصت حياتي هي . اما اديب فانني احبهُ كولدي وطالما تمنيت ان يكون صهرًا لي لانهُ مثال الرجل العاقل الحازم وسيكون لهُ مستقبل حسن . فطيبي نفسًا ولا تفاتحي والدتكِ في شيء من حديثنا هذا الى ان يأتي وقتهُ

واخبرت حنة زوجها بما دبرتهُ لابنتها فقال لها ان عزيزًا لا يناسب أليس ولا اريدهُ صهرًا لي فهو مخنثٌ لا يملك شروى نقير وما ترين فيهِ من الاسراف والتوسع في النفقات ليس الا من اموال اصحابهِ ومعارفهِ فاياكِ ان تعديهِ بذلك . فقالت وقد رفست الارض برجلها ولكنني وعدتهُ ولا ارى افضل منهُ لابنتنا فلا بد من اتمام وعدي أوَلا تعلم ان للام الحق في تدبير شؤون بناتها وليس للاب دخل في ذلك . وافضت هذه المحادثة الى نفور شديد بين جورج وزوجتهِ واقسمت انها ان لم يطع زوجها مشيئتها ستتركهُ وتحسب نفسها ارملة . فكان يحتمل جورج ذلك بصبر ويسعى جهدهُ في اصلاح زوجتهِ ولكنها لم تزد الا تصلبًا وعنادًا واصبحت حياتهما البيتية حياة نكد ومرارة . وجعل جورج همهُ مساعدة اديب في التقدم والترقي حتى انالهُ مركزًا حسنًا ثم خطّبهُ أليس وعين يوم زفافهما بدون ان تعلم زوجتهُ

اما عزيز فلم يعلم بشيء من ذلك وكان لا يتكلم في امر أليس لعلمهِ بافلاسهِ وقد اكتفى بميل والدتها اليهِ . وقبل اليوم الذي عينهُ جورج لزفاف أليس اخبر امرأتهُ فابرقت وارعدت وتوعدتهُ بعقوبات شتى . ولما رأت تصميمهُ على عزمهِ خرجت الى غرفتها وفي الصباح دخل الخادم على جورج ورفع اليهِ رسالة قرأها فاذا فيها ما يأتي

« ايها الرجل العنيد

بما انك صممت على ترك طاعتي والتصرف بدون مشورتي فلا انت زوجي ولا انا زوجتك فسأخرج من هذا البيت الذي فقدت سلطتي فيهِ . ستندم انت وابنتك على ما فعلت ولكنني سأسرّ متى رأيتكما تعضان اناملكما اسفاً . وينبغي ان تعلم اخيرًا انهُ لا يوجد قوة تعيدني اليك اذا صممت على تزويج ابنتك من اديب »

فاستآء جورج جدًّا واخذ يسأل عن زوجتهِ فاخبرهُ الخدم انها خرجت قبل بزوغ الصباح واوصتهم ان يسلموا اليهِ رسالتها حين يستيقظ

ولم يؤخر جورج امر اقتران ابنتهِ واديب فتم ذلك بغاية البساطة والسكون . اما حنة فان بغضها لزوجها ورغبتها في التكفير لعزيز عن عدم القيام بوعدها جعلاها تغوي ذلك الشاب الصغير العقل فسلمتهُ نفسها واكترى لها بيتاً اقاما فيهِ معاً في بعض الانحآء المهجورة من المدينة ولكنها ما عتمت ان تحققت ضيق ذات يدهِ وتراكم الديون عليهِ فعظم عليها الامر وضاقت الدنيا في وجهها اذلم يمكنها الرجوع الى بيت زوجها ولا استطاعت البقآء على تلك الحالة واثر فيها اليأس والغيظ فمرضت مرضاً شديدًا كان فيهِ انقضآء حياتها

وبلغ خبرها جورج فتأثر تأثرًا شديدًا ولكنهُ هان عليهِ ذلك بعد تركها اياهُ على الصفة المذكورة فلبث مع ابنتهِ وصهرهِ اديب لا يشوب حياتهم شيء من الاكدار سوى تلك الذكرى المحزنة عاقبة الطيش والجهل